

الفكر العربي ومحاولات تهميشه

الكاتب



علي محمد فخرو

د. علي محمد فخرو

بين الحين والآخر، يكتب بعض القراء تعليقات حول ما أكتبه بحماس وإيجابية مساندة، عن الهوية العربية المشتركة في ما بين أقطار الوطن العربي، أو عندما أشير إلى الالتزامات المترتبة عن الفكر القومي. هؤلاء القراء يشككون في الأسس التي تقوم عليها مفاهيم الأمة العربية الواحدة والوطن العربي الواحد، وفي هدف قيام نوع من الوحدة العربية التدريجية المنبثقة عن إرادة الشعوب، المعبر عنها ديمقراطياً. وهم يعتقدون أن ذلك الفكر الذي اجتاح بزخم جماهيري هائل كل المجتمعات العربية في الخمسينات والستينات من القرن الماضي، قد أصبح من الماضي، وأن الفكر العولمي المناقض لضرورة الدولة القومية لكل أمة في هذا العالم، سيسود إن عاجلاً أو عاجلاً. وهم بالطبع يرددون، بعلم أو بغير علم، مقولات نهايات الأيديولوجيا والتاريخ التي طرحها العديد من الكتاب السياسيين الأمريكيين، والتي تخلّوا عنها بعد حين.

ملاحظات القراء تلك تحتاج إلى أن نناقشها بهدوء وبموضوعية تامة، ذلك أن الكثير من الشعارات التي طرحها شباب وشابات الأمة العربية إبان حركاتهم الجماهيرية المليونية عبر السنوات العشر الماضية، ستبقى صرخات في واد، وستجهز عليها قوى الظلام في الداخل وقوى الاستعمار الاستغلالي في الخارج، إن لم يكن النضال الوطني من أجلها مرتبط بنضال عربي مشترك مساند ومعزز وحام.

دعنا اليوم نأخذ بعض الجوانب التاريخية التي تستوجب، وتسهل في نفس الوقت، طرح شعار الهوية الثقافية والتمسك بقيام أمة الدولة القومية.

* أولاً، إن الأمة العربية، كغيرها من الأمم الأخرى، تكونت عبر تاريخ طويل يمتد إلى عشرات القرون من مجموعات من القبائل والشعوب. ومع مرور الوقت، واشتراكها في السراء والضراء، تكوّن لديها وعي بذاتها وخصوصيتها اللغوية والمسلكية وشتى الصور التعبيرية من مثل الشعر والأساطير والبناء. وقد ساهمت الحروب في ما بينها والهجرات في

اختلاط تلك القبائل والشعوب وتفاعلها الديني والثقافي والعرقى وذوبان حضارات سابقة في حضارات جديدة. وبالطبع لعبت الجغرافيا الواحدة والمتقاربة والمنفتحة على بعضها بفعل الصحاري والأنهر المشتركة والبحار المتداخلة، دوراً كبيراً في كل ما حدث من توحيد مادي ومعنوي.

* ثانياً، لكن ما كان لنضج وجود الأمة ووعيها الشديد بذاتها وهويتها أن يتجزر في التاريخ، وعبر القرون، لولا التغيرات الكبرى التي أحدثها مجيء الإسلام كدين وكحضارة في كل جزء منها أولاً ثم ثانياً في أرض العرب كلها، القديمة والجديدة الزاحفة باسم الدين الجديد، وأصبح صعباً عند ذاك التفريق بين أنا الإسلام وأنا العرب. وبالطبع كان للغة القرآن العربية دور كبير في ترسيخ وحدة اللغة، أداة توحيد الفكر والثقافة اللازمين لبناء وجود كل أمة.

هناك من المؤرخين من يعتقد أن كيان الأمة شبه القانوني والدستوري بدأ مع صحيفة النبي العربي في المدينة، والتي كانت عبارة عن تأكيد بأن المهاجرين والأنصار واليهود العرب، يكوّنون أمة واحدة متضامنة ضد أعدائها. كان ذلك الكيان العربي الرسمي هو منطلق التوسع في الجزيرة العربية ثم في ما وراءها، متمثلاً في دولة الأمويين الشديدة التمسك بكل ما هو عربي أولاً، ثم في دولة العباسيين الشديدة الشبه بامبراطورية جامعة لشعوب عديدة، ثم في أشكال من الدول المستقلة عن مركز الخلافة الإسلامية بهويات محلية إلى حد ما، ولكن دون أن يستطيع أحد منها الوصول إلى الدولة القومية، دولة الأمة. لكن بالرغم من كل تلك الانقسامات ظلت الهوية العربية الإسلامية الجامعة لكل الأجزاء هي التي يشعر بها الفرد وتشعر بها الجماعة.

ذاك التاريخ الموحد لم يقف عند تلك الحدود الزمنية ، وظل متمظهاً عبر القرون الحديثة كما سنبينه لاحقاً. من هنا أهميته الكبرى في تكوين الهوية الواحدة وفي طرح شعار الأمة العربية الواحدة

dramfakhro@gmail.com

"حقوق النشر محفوظة" لصحيفة الخليج. © 2024